آية من كتاب الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

إن هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه لم يكن منكراً لوجود الله أصلا إنما كان منكرا لوحدانيته في الألوهية والربوبية ولتصريفه للكون وتدبيره لما يجرى فيه وحده ، كما كان بعض المنحرفين في الجاهلية يعترفون بوجود الله ولكنهم يجعلون له أندادا ينسبون إليها فاعلية وعملًا في حياتهم ! وكذلك كان منكراً أن الحاكمية لله وحده ، فلا حكم إلا حكمه في شؤون الأرض وشريعة المجتمع .

إن هذا الملك المنكر المتعنت إنما ينكر ويتعنت للسبب الذي كان ينبغى من أجله أن يؤمن ويشكر هذا السبب هو « أن آتاه الله الملك » .. وجعل في يده السلطان ! لقد كان ينبغي أن يشكر ويعترف ، لولا أن الملك يُطغى ويبطر من لا يقدرون نعمة الله ، ولا يدركون مصدر الإنعام . ومن ثم يضعون الكفر في موضع الشكر ، ويضلون بالسبب الذي كان ينبغي أن يكونوا به مهتدين ! فهم حاكمون لأن الله حكمهم ، وهو لم يخولهم استعباد الناس بقسرهم على شرائع من عندهم . فهم كالناس عبيد لله ، يتلقون مثلهم الشريعة من الله ، ولا يستقلون دونه بحكم ولا تشريع فهم خلفاء لا أصلاء !

ومن ثم يعجب الله من أمره وهو يعرضه على نبيه : « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك ؟ » .

ألم تر ؟ إنه تعبير التشنيع والتفظيع ، والإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظى وبنائه المعنوى سواء . فالفعلة منكرة حقا : أن يأتى الحجاج والجدال بسبب النعمة والعطاء ! وأن يدعى عبد لنفسه ما هو من اختصاص الرب ، وأن يستقل حاكم بحكم الناس بهواه دون أن يستمد قانونه من الله .

« قال إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت » ..

والإحياء والإماتة هما الظاهرتان المكرورتان في كل لحظة ، المعروضتان لحس الإنسان وعقله . وهما ــ في الوقت نفسه ــ السر الذي يحير ، والذي يلجىء الإدراك البشرى إلجاء إلى مصدر آخر غير بشرى . وإلى أمر آخر غير أمر المخاليق . ولا بد من الالتجاء إلى الألوهية القادرة على الإنشاء والإفناء لحل هذا اللغز الذي يعجز عنه كل الأحياء .

إننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة . ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات . ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي نعرفها على الإطلاق .. قوة الله ..

ومن ثم عرَّف إبراهيم ــ عليه السلام ــ ربه بالصفة التى لا يمكن أن يشاركه فيها أحد ، ولا يمكن أن يزعمها أحد ، وقال وهذا الملك يسأله عمن يدين له بالربوبية ويراه مصدر الحكم والتشريع غيره .. قال : « ربي الذي يحيي ويميت » فهو من ثم الذي يحكم ويشرع .

وما كان إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهو رسول موهوب تلك الموهبة اللدنية التي أشرنا إليها في مطلع هذا الجزء ــ ليعنى من الإحياء والإماتة إلا إنشاء هاتين الحقيقتين إنشاء . فذلك عمل الرب المتفرد الذي لا يشاركه فيه أحد من خلقه . ولكن الذى حاج إبراهيم في ربه رأى في كونه حاكما لقومه وقادرا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت مظهرا من مظاهر الربوبية . فقال لإبراهيم : أنا سيد هؤلاء القوم وأنا المتصرف في شأنهم ، فأنا إذن الرب الذي يجب عليك أن تخضع له ، وتسلم بحاكميته :

« قال : أنا أحيي وأميت » !

عند ذلك لم يرد إبراهيم ــ عليه السلام ــ أن يسترسل في جدل حول معنى الإحياء والإماتة مع رجل يمارى ويداور في تلك الحقيقة الهائلة . حقيقة منح الحياة وسلبها . هذا السر الذي لم تدرك منه البشرية حتى اليوم شيئا .. وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونية الخفية ، إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية ، وعدل عن طريقة العرض المجرد للسنة الكونية والصفة الالهية في قوله : « ربي الذي يحيى ويميت » .. إلى طريقة التحدي ، وطلب تغيير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله ، ليريه أن الرب ليس حاكم قوم في ركن من الأرض ، إنما هو مصرف هذا الكون كله ، ومن ربوبيته هذه للكون يتعين أن يكون هو رب الناس المشرع لهم :

« قال إبراهيم : فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب » ..

وهي حقيقة كونية مكرورة كذلك ، تطالع الأنظار والمدارك كل يوم ، ولا تتخلف مرة ولا تتأخر . وهي شاهد يخاطب الفطرة ــ حتى ولو لم يعرف الإنسان شيئا عن تركيب هذا الكون ، ولم يتعلم شيئا من حقائق الفلك ونظرياته ــ والرسالات تخاطب فطرة الكائن البشرى في أية مرحلة من مراحل نموه العقلى والثقافى والاجتماعي ، لتأخذ بيده من الموضع الذي هو فيه . ومن ثم كان هذا التحدى الذي يخاطب الفطرة كما يتحدث بلسان الواقع الذي لا يقبل الجدل :

« فبهت الذي كفر » ..

فالتحدي قائم ، والأمر ظاهر ، ولا سبيل إلى سوء الفهم ، أو الجدال والمراء .. وكان التسليم أولى والإيمان أجدر . ولكن الكبر عن الرجوع إلى الحق يمسك بالذي كفر ، فيبهت ويبلس ويتحير ، ولا يهديه الله إلى الحق لأنه لم يتلمس الهداية ، ولم يرغب في الحق ، ولم يلتزم القصد والعدل :

« والله لا يهدي القوم الظالمين » ..

ويمضي هذا الجدل الذى عرضه الله عل نبيه ــ ﷺ ــ وعلى الجماعة المسلمة . مثلًا للضلال والعناد ، وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين ، وفي ترويض النفوس على تعنت المنكرين !

كذلك يمضي بتقرير تلك الحقائق التي تؤلف قاعدة التصور الإيماني الناصع : « ربي الذي يحيي ويميت » .. « فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ! » .. حقيقة في الأنفس وحقيقة في الآفاق . حقيقتان كونيتان هائلتان ، وهما ـــ مع ذلك ـــ مكرورتان معروضتان للبصائر آناء الليل وأطراف النهار . لا تحتاجان إلى علم غزير ، ولا إلى تفكير طويل . فالله أرحم بعباده أن يكلهم في مسألة الإيمان به والاهتداء إليه ، إلى العلم الذي قد يتأخر وقد يتعثر ، وإلى التفكير الذي قد لا يتهيأ للبدائيين . إنما يكلهم في هذا الأمر الحيوي الذي لا تستغني عنه فطرتهم ، ولا تستقيم بدونه حياتهم ، ولا ينتظم مع فقدانه مجتمعهم .. ولا يعرف الناس بدونه من أين يتلقون شريعتهم وقيمهم وآدابهم .. يكلهم في هذا الأمر إلى مجرد التقاء الفطرة بالحقائق الكونية المعروضة على الجميع ، والتي تفرض نفسها فرضا على الفطرة ، فلا يحيد الإنسان عن إيحائها الملجىء إلا بعسر ومشقة ومحاولة وتعنت وعناد !

والشأن في مسألة الاعتقاد هو الشأن في كل أمر حيوى تتوقف عليه حياة الكائن البشرى . فالكائن الحي يبحث عن الطعام والشراب والهواء ـــ كما يبحث عن التناسل والتكاثر ـــ بحثا فطريا ، ولا يترك الأمر في هذه الحيويات حتى يكمل التفكير وينضج ، أو حتى ينمو العلم ويغزر .. وإلا تعرضت حياة الكائن الحي إلى الدمار والبوار .. والإيمان حيوي للإنسان حيوية الطعام والشراب والهواء سواء بسواء . ومن ثم يكله الله فيه إلى تلاقى الفطرة بآياته المبثوثة في صفحات الكون كله في الأنفس والآفاق .

الدين النصيحة

عن أبى رقية بن أوس الدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (الدينُ النَّصيحةُ) قلنا : لمن ؟ قال : (لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتهم) رواه مسلم .